القسم الرابع

كتاب الخيانة

obeikandi.com

obeikandl.com

في عام ١٩٧٠ فرغ الكاتب والشاعر الكبير صالح جودت من إنجاز كتاب عجيب الشأن له صلة بتاريخ مصر السياسي أسماه "كتاب الخيانة" سرد فيه سيرة، بعض من خانوا مصر وكتب هذه المقدمة لهذا الكتاب الذي لم يقدر له أن ينشر "**لماذا أكتب هذا الكتاب؟**

«في تاريخنا المصري - كما في تاريخ كل أمة - صفحات حافلة بأسماء العظماء والأبطال والأبرار والشهداء، الذين لا يفتأ المؤرخون يمجدون ذكراهم، ويشيدون بتضحياتهم، وتظل أمجادهم على مدى الدهر موضعًا للتكريم، وهديًا لكل جيل قادم ولكن من طبائع النفوس البشرية أن تتراوح بين الخير والشر، ولهذا كان من المستحيل أن يخلو أي جيل من الأجيال في أية أمة من الأمم من نفوس صغيرة تعرض عن الخير، وتجنح إلى الشر، وتقع تحت إغراء الجاه أو المال أو السلطان، فتعمى عن سواء السبيل، وتبيع بعرض الدنيا ثواب الآخرة.

ولهذا، فإن الله سبحانه وتعالى، حينما بعث برسوله الكريم لهداية البشر، قال إنه إنما يرسله بشيرًا ونذيرًا للناس.. أي بشيرًا لأهل الخير، ونذيرًا لأهل الشر، لأن الله يعلم - وهو سبحانه خير من يعلم - أن الناس محتاجون في كل عصر إلى البشير والنذير معًا.
ولهذا، فإن المؤرخين يقصرون عن أداء الرسالة حينما يكرسون الصفحات الطوال لتمجيد الأبطال، بينما يمرون بذكر الخونة مر الكرام، فتتناساهم الأذهان، ولا يعلقون بذواكر الأجيال التالية، لتعتبر بسوء فعلهم، وتتدبر جنايتهم على أوطانهم، وتلعنهم كل صباح ومساء، وتحذر ضعفاء النفوس من أن ينتهوا إلى مصير كذلك المصير.

ولقد حدثني صديق ممن ذهبوا مؤخرًا إلى الصين أنه رأي هناك تمثالًا للخائن المجهول، على غرار الجندي المجهول - والقياس مع الفارق - منصوبًا في أحد الميادين العامة، ورأى المواطنين هناك لا يفوت أحدهم أن يبصق عليه كلما مر به والفكرة عظيمة ولا شك.

ولو علم كل خائن أن أمته ستقيم له بعد وفاته تمثالًا يبصق الناس عليه في كل جيل، لارعوى، وارتد إلى حظيرة الوطن، وتاب إلى الله.

ولو علم كل امرئ أن هذا هو مصير الخائن، وهذا هو نصيبه في الأجيال القادمة، لما حدثت أحد نفسه بالخيانة، تحت أي إغراء وحينما حدثت صديقي الوطني الكبير الأستاذ فتحي رضوان المحامي بحديث تمثال الخائن المجهول في الصين، نبهني إلى ملاحظة ذكية، هي أن فكرة رجم الشيطان بالجمرات في موسم الحجيج، هي ليست مجرد تقليد قائم على كراهية وجود الشيطان في هذا المكان من الأرض المقدسة، ولكنها نابعة من الدعوة إلى استنزال اللعنات على الشيطان، بوصف كونه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، فيحملهم على الخيانة .. خيانة الله ورسله وكتبه ووصاياه.

فكأن الله يدعونا إلى رجم الخونة في كل زمان، وأن نذكر بهم الناس في كل أوان لعلهم يتعظون، ولعلهم يهتدون، إذا ذكروا أن التاريخ لا ينسى، وأنه يمهل ولا يهمل، وأن سيرة الخائن تبقى رواية على ألسنة الناس إلى يوم الدين لهذا كتبت هذا الكتاب ليكون نذيرًا للناس.. ليقرأ كل مواطن هذه السير على نفسه وأخوته وأولاده ومواطنيه، ويجتمع معهم على استنزال لعنة الله عليهم مع طلوع كل فجر، ومع غروب كل شمس، وتاريخ الخيانة قديم على الأرض والخونة في تاريخنا – كما في تاريخ كل أمة – موجودون في كل عصر، ولكني آثرت– في هذا الكتاب على الأقل – أن أحصر نطاق البحث في الفترة الواقعة بين ثورة السيد عمر مكرم وثورة ١٩١٩ لأنها فترة متصلة الأحداث، ولا يزال الكثير من أحداثها ماثلًا في وجدانات المواطنين في عصرنا هذا، ولا يزال أبطالها أحياء في ذواكر الناس، وإن كان الخونة الذين عاشوا خلال هذه الفترة يكادون يتوارون تحت تراب الإهمال، وتنزل على اسمائهم ستائر النسيان.

وأصعب ما واجهته في هذا البحث، هو تحديد دائرة الخيانة، وتعيين الأسماء التي تستحق أن تلصق بها تهمة الخيانة .

ذلك لأن الكلمة كبيرة، بحيث لا يغفر الله للمؤرخ إذا هو ألصقها بإنسان ما، ليلوث سمعته على طول الزمان دون أن يكون ذلك الإنسان أهلًا لهذه الوصمة ثم أن هناك اعتبارات أخرى في تقدير مدى الخيانة منها مرونة الحد الفاصل بين الخيانة الواضحة وبين الإيمان لفكرة معينة قد لا تصادف هوى في نفوس أغلبية الشعب هذا إلى اعتبارات

أخرى ترجع إلى شخصية المتهم بالخيانة وعقيدته وجنسيته.

ومصداقًا لذلك، أطرح الأضواء الآتية...

رجل كمحمد علي، مؤسس الأسرة العلوية هل أستطيع أن أفسح له مكانًا في كتاب الخيانة ؟

صحيح أنه خان الأمانة التي استودعها إياه السيد عمر مكرم باسم الشعب المصري، فطغى واستكبر وبغي واستكبر ولكن ... من هو محمد علي؟ إنه رجل تركي أصلًا وهو مبعوث الباب العالي، ليحكم مصر باسم السلطان. فهو إذن ليس مصريًا، وشأنه في ذلك شأن أي أجنبي يتولي الحكم في بلد غير بلده. فإن هو فعل ما فعل فلا سبيل إلى نسبة الخيانة إليه، لأنه يخون وطنًا غير وطنه، والخيانة بمعناها السياسي، لا تطلق إلا على من يخون وطنه.

يضاف إلى هذا، أن الشعب المصري هو الذي ولاه أريكة الحكم، وأعانه على التمرد على الباب العالي فهل معنى هذا أن محمد على خائن، لأنه خائن وطنه الأصلي، وتمرد على سلطانه ونحن الذين حرضناه على هذا، وهللنا له؟ هل معنى هذا أننا صفقنا لخائن؟ وهل الخائن هو الأجنبي الذي ينضم إلى صفنا، ويقف في وجه وطنه؟

ورجل كمحمد شريف باشا .. هل أستطيع أن أنسب إليه الخيانة، لأنه ضن على الشعب المصري بالدستور المثالي الذي ارتضاه في أول الأمر ثم عاد فقدم له دستورًا مقصوص الأجنحة، بحجة أن الشعب المصري لم ينضج بعد وأن هؤلاء الفلاحين على حد قوله لا يستحقون كل هذه الحرية، فهم لا يزالون بحاجة إلى تربية وتوجيه وإرشاد.

ورجل كأحمد لطفي السيد، منشئ حزب الأمة المناهض لأماني الأمة كما حددها أبطال الحزب الوطني، والمهادن للإنجليز المحتلين، وصاحب "الجريدة" لسان حال ذلك الحزب... هل أستطيع أن أصمه بالخيانة، فأنكر بذلك أنه كان صاحب مدرسة سياسية معينة، ترى أن المهادنة قد تكون سبيلًا إلى حل القضية، وأنكر بذلك أيضًا جهاد الرجل ودعواته الكبيرة إلى الديمقراطية والحرية الاجتماعية والفكرية مما جعله إلى آخر يوم في حياته موضعًا لتكريم رجال الثورة المعاصرة؟

ورجال كعدلي يكن وعبد الخالق ثروت ومحمد محمود وإسماعيل صدقي .. هل أستطيع أن أدرجهم في كتاب الخيانة، لمجرد أنهم كانوا خصومًا للوفد، الذي كان يمثل سواد الشعب – وأن بنصهم رأي أن الدستور الذي قام على الحكم البرلماني في مصر سنة ١٩٢٣ كان ثوبًا فضفاضًا ؟ أو ليس هذا هو الدستور الذي هدمته الثورة المعاصرة، لأنه كان يمثل روح الإقطاع؟

ورجل كسعد زغلول، هل أستطيع أن أضمن كتاب الخيانة اسمه، لأن تزوج بنت عميل الاحتلال، مصطفى فهمي، لكي يصبح وزيرًا في وزارته، ولأنه – كما يؤكد الأستاذ عبد الرحمن الرافعي – دخل الوزارة بناء عى رغبة اللورد كرومر ولأنه كان ضمن أعضاء وزارة بطرس غالي التي أرادت مد امتياز قناة السويس لصالح الشركة الأجنبية، ودافع عن هذا المشروع بنفسه أمام الجمعية التشريعية ولأنه هو الذي كتب المذكرة التفسيرية لتعديل قانون العقوبات – إذ هو وزير للحقانية في وزارة العميل محمد سعيد – ليشمل المتهمين الوطنيين في الاتفاقات الجنائية بقضايا الاغتيال السياسي، ولو لم يتوافر ركن المشاركة في ارتكاب الجريمة، وأخيرًا لأنه كان أول من ذهب لاستقبال أول معتمد بريطاني عقب إعلان الحماية على مصر، في محطة مصر، وقال إنه يتوسم فيه الخير؟

هل أستطيع أن أضعه في قائمة الخونة، فأنسي بذلك أنه ثاب إلى رشده فيما بعد، وأسدل الستارة على ذلك الماضي، وشرع أسلحة الجهاد في وجه الاستعمار، واحتمل مرارة السجن والمنفي في مالطة وسيشل، وظل يحمل راية النضال من أجل الحرية والدستور إلى آخر يوم في حياته ... ورجل كمصطفي النحاس، هل نجد له مكانًا في كتاب الخيانة، وننسى كل جهاده ومواقفه وتضحياته، رأنه جاء إلى الحكم يوم ٤ فبراير على أسنة رماح الإنجليز ... ثم كان أول ما فعله بعد ذلك، أن أذل نفسه وحزبه وشعبه، وطلب تقبيل يد الملك فاروق، وهو الزعيم الذي يمثل سواد الأمة؟

كل هؤلاء وغيرهم ممن كبرت أسماؤهم في تاريخ هذا البلد خلال هذه الحقبة، لا أستطيع أن أصفهم بالخيانة، ولا أدرج سيئاتهم إلا في حساب الأخطاء والكبوات.

أما الخونة، الذين أحدثكم عنهم في هذا الكتاب، فهم الذين لم يرحموا أسماءهم من

أن تدرج في سجل الخيانة، فدخلوا التاريخ ملطخين بالعار، دون أن يظفروا – على امتداد التاريخ – بمن يستطيع أن ينبري للدفاع عنهم، أو يلتمس لهم الأعذار.

*****

وإذا كنت قد أعفيت رجلًا كمحمد على من أن يذكر في هذا الكتاب، لأنه كان غريبًا على مصر، قادمًا إليها لأول مرة، فإنني لا أستطيع أن أعفى غيره ممن جاء آباؤهم من الخارج، من بلاد الترك والجركس والأرمن والأرناؤود، واستقروا في هذا البلد عدة أجيال، وشربوا من ماء النيل، ونعموا بالجاه والثراء والرتب والمناصب تحت سماء مصر، فصار حقا لهم أن يكونوا مصريين، وصار حقًا عليهم أن ينصروا مصر، ولكنهم كفروا بنعمة مصر وخانوا أمانتها، فحقت عليهم اللعنة، واتسع لهم كتاب الخيانة ومن هؤلاء الخديو توفيق وعثمان رفقي ونوبار وأمثالهم من عمد الخيانة.

وستقرءون هذا الكتاب يا إخوتي في الوطن، وستجدون فيما تقرءون من أحداث الخيانة، أسماء أسر متواضعة الأصول، انحرفت إلى الخيانة، فلان لها الدهر، واجتمع لها الثراء وأصبح بعض هذه الأسر في غفلة من الزمان يؤلفون أصحاب الطبقة التي عرفت في الجيل الماضي بأولاد الذوات وأبناء البيوتات، وأصحاب الحسب والنسب، إلى أن جاءت ثورة سنة ١٩٥٢، فردت الأمور إلى نصابها، وأعادت توزيع الثروات على الشعب، وانتزعت من يد تلك الفئة أكثر ما جمعت من المال الحرام عن طريق الخيانة والغدر والانحراف والعبث بمقادير هذا الوطن المسكين.

رجعت في إعداد هذا الكتاب إلى كثير من المراجع ولكن المرجع الذي بقى في المقدمة، والذي جعلته نصب عيني دائمًا، هو المؤرخ الصادق الأمين، المغفور له الأستاذ عبد الرحمن الرافعي، بشخصه، وبمؤلفاته العظيمة التي سجل بها تاريخ مصر في العصر الحديث.

وعبد الرحمن الرافعي، هو المؤرخ المصري الوحيد الذي كتب التاريخ المصري في العهد الملكي بأمانة وجسارة، فتحدث عن جشع محمد على وأنانيته، وسوء موقفه من السيد النقيب عمر مكرم، وتحدث عن حماقات إسماعيل، وامتصاصه لدم الشعب،

وإهداره لمستقبله، في سبيل لذاته، وتحدث عن خنوع توفيق وذله وضعفه وخيانته، وتحدث عن تعالى فؤاد على المصريين، وهاجمه في وصفه لهم بأنهم رعايا له، وما هم إلا مواطنون، وانتقد أن يكون الدستور منحة منه للشعب، لاحقًا راسخًا من حقوقه الشرعية واستنكر أن يذيل رؤساء الوزارات خطاباتهم له بكلمات "العبد الخاضع والخادم الأمين"

كل هذا سجله عبد الرحمن الرافعي بكل شجاعة، في ذروة طاغوت الملكية وعنفوان الاستعمار... وفي الوقت الذي كان غيره من كتاب التاريخ يتمسحون بعتبات العرش، ويؤلهون محمد علي، ويدافعون عن أخطاء إسماعيل، ويسمونه "إسماعيل العظيم" ... ويحيطون فؤاد بآيات القداسة.

ولقد اتخذت من الأستاذ الرافعي في حياته صديقًا وأبا وأستاذًا ومرشدًا، وكنت أختلف إليه في كثير من الأحيان، وأستمع إلى آرائه الجريئة في الرجالات الذين توالوا على هذا البلد، وهي آراء يتباين الكثير منها مع رأي أكثر الناس في هؤلاء الرجال.

من ذلك مثلا، أن الرافعي كان يسيء الظن بأحمد عرابي، وبأحمد لطفي السيد، وبسعد زغلول، إساءة تصل إلى حد الاتهام بالخيانة في بعض الأحيان.

ومنها أنه كان يميل دائمًا إلى الدفاع عن شريف باشا، رغم الكثير من السقطات المحسوبة عليه، لأنه كان يرى فيه أبا للحياة الدستورية في مصر، ومحاميًا عنها في أكثر عهود الظلام.

وقد بدأت صلتي بالأستاذ الرافعي في وقت مبكر، إذ كان في المبدأ صديقًا لأبي وعمي، وكان – في أيامه وأيامنا بالمنصورة – يشير إلى أبي، ويهمس لي وأنا لا أزال طالبًا صغيرًا.

– لا تنس أن أباك هذا، ولد في المنفى ويقص على القصة.

فقط كان جدي، إسماعيل جودت، من رجال الثورة العرابية [1]، وكانت تهمته في المحاكمات العرابية أنه كان يشارك في اجتماعاتهم بالقاهرة، وأنه دفع رجاله– وكان يملك بضعة آلاف من الأفدنة في مديرية البحيرة– إلى الاشتراك في معركة كفر الدوار، التي منى فيها الإنجليز بهزيمة نكراء.

(1) كتاب "الثورة العرابية" لعبد الرحمن الرافعي – الطبعة الثانية – صفحة ٤٧٤.

وصدر الحكم عليه بالنفي خارج مصر ثلاث سنوات، ومصادرة جميع أملاكه، حتى البيت الذي يؤويه.

وذهب إلى الآستانة، حيث ولد أبي، في ذلك المنفى، وحرمته قسوة القدر أن تتفتح عيناه على نور الوطن.

*****

وفي الحق أنه كان للأستاذ الرافعي على فضل كبير، فهو الذي أوغر صدري على الخيانة والخونة، وحرضني على أن أذكرهم للناس دائمًا في كل مجلس وفي كل مقال، وقد اختمرت الفكرة في ذهني سنوات طويلة، إلى أن قدر لها أن تخرج إلى النور في هذا الكتاب.

وكان الأستاذ الرافعي رقيقًا، متواضعًا، يسير بين الناس على استحياء، فلا يعرفه أحد، ولو أنصفوا لهتفوا له في كل مكان.

وقد عاش فقيرًا ومات فقيرًا، لم يطلب من الدنيا شيئًا، ولم يبتغ إلا وجه الله والوطن.

وقد هالني، بعد أن أنشأت الثورة جوائز الدولة، ألا أجد أحدًا يذكر عبد الرحمن الرافعي بين المرشحين لجائزة الدولة التقديرية للعلوم الاجتماعية، فشحذت قلمي، وكتبت أكثر من مقال في "المصور" أدعو القوم إلى هذا الواجب الذي يعد أقل تكريم لشيخ المؤرخين.

ثم جعلت أطوف بمن أتوسم فيهم الخير من أعضاء المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية، وأحرضهم على ترشيح الرافعي وكنت يومئذ عضوا في لجنة الشعر بالمجلس، وفاتحت مقررها، المغفور له الأستاذ عباس محمود العقاد في الأمر، فتهلل له، وكتبنا وثيقة الترشيح، وكانت لجنة الشعر في طليعة اللجان التي زكت الأستاذ الرافعي للجائزة، فنالها والحمد لله، وظهرت النتيجة فى الصحف، فى الساعة الثامنة من صباح ذلك اليوم وجدت الأستاذ الرافعى في بيتي، ومعه صهره الدكتور حلمي شاهين المحامي وفاجأني وأنا أوزع أكواب "الشربات" ابتهاجًا بفوزه بالجائزة، فعانقني، ودمعت عيناه، وقال:

- الحق أنك دفعت الجائزة اليّ دفعا: وما كنت طامعا فيها، ولكني أحس اليوم، بعد أن نلتها، أن الدنيا بخير، وأن هناك من يقدرون العمل الصالح.

*****

لقد فقدت مصر استقلالها، في تاريخها الطويل، أكثر من مرة.

ولو راجعنا حوادث التاريخ، لوجدنا أن مصر لم تفقد استقلالها في كل مرة بسبب خضوع أهلها، أو نكوصهم عن نصرتها، بل إن المقاومة والمقاومة الشعبية البطولية بالذات، كانت من أخص خصائص المصريين على طول التاريخ.

ولكن الخيانة، التي وجدت في كل زمان ومكان في حياة البشرية، وأوذى بها الرسل والأنبياء، والصديقون والأبرار، كانت هي السبب في ضياع الاستقلال في كل مرة.

ولا تعوزنا الأمثلة على تأكيد هذه الحقيقة، ولعل أقرب الأمثلة إلى الفترة التي أؤرخ لها – فترة ما بين ثورة السيد عمر مكرم وثورة سنة ١٩١٩ – هي مأساة السلطان طومان باي، الذي قاوم مطامع الغزاة الأتراك في أرض مصر زمانًا طويلاً، إلى أن أوشك أن يغلب على أمره، فرأى أن ينسحب من الجيزة إلى بعض أقاليم البحيرة، لعله يستطيع من هناك أن يعد العدة للمقاومة من جديد.

وفي بلدة "البوطة" القريبة من "حوش عيسى" بمديرية البحيرة، نزل عند شيخ من مشايخ العربان هناك اسمه حسن مرعي.

وكان لطومان باي فضل على هذا الشيخ الذي كان سجينا في عهد السلطان الغوري (سلف طومان باي) فأطلق طومان باي سراحه، وحرر وثاقه، وأكرمه إكرامًا عظيمًا.

ويقول المؤرخ ابن إياس، الذي عصر هذه الفترة إن حسن مرعي وأخاه شكر مرعي، هما اللذان استضافا السلطان بإلحاح في البوطة "ردا لجميله، وجاءا بمصحف فأقسما عليه سبع مرات أن يؤمناه على حياته ويحمياه من كل سوء، ثم ما لبثا أن أرسلا إلى السلطان سليم في الخفاء، بمن يخبره بأن طومان باي أسير عندهما، فأرسل إليه رجاله،

فجاءوا به ليمثل بين يديه.

ولم ترتدع فرائص السلطان الشجاع طومان باي أمام الغازي التركي، الذي بادره بالسؤال:

- لماذا لم تعترف بسلطاني وتدخل في طاعتي عندما دعوتك إلى ذلك؟

فأجاب طومان باي بكل عزة:

* لأنني ملزم بالدفاع عن بلدي الذي أولاني الحكم، وفي عنقي أن أصونه وأحميه كما أحمي المدينتين المكرمتين مكة والمدينة، أما أنت، فلست أدري كيف تبريء نفسك أمام الله في عدوانك الظالم على بلادنا؟ على أنك، يا سلطان الروم، غير ملوم على سقوط مملكتنا، بل الذنب كله ذنب الخونة ..

وهنا أشار طومان باي إلى الخائنين "خير بك" و"جان بردي الغزالي " اللذين تواطآ مع السلطان سليم فمهدا له السبيل إلى غزو مصر.

وانتهت المأساة بشنق السلطان طومان باي على باب زويلة، وبكاه الشعب مر البكاء.

أما الأعرابي الخائن، حسن مرعي، فإن الشعب لم يتركه ينعم بما أنعم به عليه السلطان سليم، بل كان مصيره أن وقع في يد المماليك الجراكسة، الذين ذبحوه وشربوا من دمه، وقتلوا أخاه شكر مرعي كذلك، واحتفلت القاهرة بقتله احتفالا كبيرًا نصبت فيه معالم الزينات، وترددت الزغاريد.

*****

لهذا كتبت هذا الكتاب ...

لأن أبناء هذا الشعب لم يقعدوا يومًا عن نصرته والدفاع عن حريته، ولكنهم فقدوا حريتهم في كل مرة، بتدبير من طابور الخونة الجبناء.

وإذا كنت قد وقفت عند ثورة سنة ١٩١٩، فإن صفحات كتاب الخيانة لا تزال مفتوحة لتستوعب مزيدًا من الخونة بعد ذلك، ومنهم من ظهروا في نهاية الفترة التي

أرخت لها، واستكملوا تاريخهم في الخيانة فيما بعد، كتوفيق نسيم وأحمد زيور ويحي إبراهيم، ومنهم من فجرهم الرجس بعد ذلك، فارتضوا لأنفسهم أن يكونوا "شهود ملك" يشون بالأحرار ويوقعون بالثوار في حوادث الاغتيالات السياسية التي تعاقبت بعد الثورة، لقاء المكافآت التي بذلها لهم الإنجليز بسخاء، وهي من خزانة مصر، ومن دماء هؤلاء الذين أوقع بهم الخونة وزجوا بهم إلى أعواد المشانق وأعماق السجون ودماء إخوانهم في الوطن.

فإذا مد الله لي في العمر، فإني أعاهد الله والوطن والتاريخ على تعقب هؤلاء الخونة، وأروى سيرتهم في طبعة موسعة قادمة من "كتاب الخيانة" تضم الآثمين في حق الوطن منذ بداية الفترة التي أرخت لها هذه المرة، وهي ثورة السيد عمر مكرم، إلى ثورة سنة ١٩٥٢.

***

كان مقدراً أن ينشر "كتاب الخيانة" في شهر يوليو ١٩٧٦ في سلسلة كتاب الهلال وتم الإعلان عن صدوره لكن عاجلت المنية صالح جودت في ٢٣ يونيو ١٩٧٦ فلم يصدر الكتاب وضاع فيما ضاع من أوراق صالح جودت المخطوطة ، وبعدها أسدلت ستارة كثيفة من التجاهل والنسيان لصالح جودت وشعره وأدبه بفعل خصومه والمناوئين لاتجاهاته وأفكاره ومواقفه.